الدرس الرابع عشر :

التـــوبـــة

روى مسلم في صحيحه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « **يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة** »[1].

وجوب التوبة :

التوبة واجبةٌ على كل إنسان ، كما قال الله تعالى في كتابه : ﴿ **وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (النور: ٣١).

وذلك أنَّ إنسانًا ما لا يزعم لنفسه أنه مطهَّر من كل ذنب ، ومن كل خطيئة ، لقد جاء في الحديث : « كل بني آدم خطاء »[2]. ولكن لا يضرُّ الإنسانَ أن يُخطئ ، وإنما يضرُّه أن يتمادى في الخطأ والخطيئة ، أن يستمرَّ في الغفلة عن الله والإعراض عنه .

إنَّ آدم أبا البشر أخطأ ونسي ولم يجد له الله عزمًا ، ولكنه سرعان ما راجع نفسه ، وعاد يقرع باب ربه ، ويقول مع زوجه : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (الأعراف:٢٣)، ﴿ **فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ**

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) ، وأحمد (١٧٨٤٧) ، عن الأغرِّ المُزني .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٩) ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١) ، وابن أبي شيبة في ذكر رحمة الله (٣٥٣٥٧) ، والدارمي في التوبة (٢٧٢٧) ، وأبو يعلى (٢٩٢٢) ، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٤/٤) ، وصحح إسناده ، وقال الذهبي : علي بن مسعدة لين ، والبيهقي في الشعب باب معالجة كل ذنب بالتوبة (٧١٢٧) ، عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٨) .

﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:٣٧). إن الإنسان يُخطئ وتزلّ قدمه فيهوي إلى المعصية ، ولكنه يستطيع أن يَرقِع ما فتقه بالتوبة .

التوبة هي المَمْحاة التي منحها الله للإنسان ، ليستطيع أن يغسل بها ذنوبه ، وأن يتطهر بها من سوء ماضيه ، وأن يتحرر من آثاره ، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣١)، و« التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢) .

حقيقة التوبة ومعناها :

ولكن . . . ما التوبة ؟ ما معناها ؟

إنَّ التوبة ليست كلامًا يقال باللسان ، كما يظن بعض الناس ، حين يقول : تبتُ إلى الله ، ورجعتُ إلى الله ، وندمتُ على معصية الله ، وعزمتُ على طاعة الله . . .

لا . . . هذا ليس هو التوبة .

التوبة مزيج مُركَّب من أشياء :

التوبة المطلوبة والمعقولة إنما هى مزيج مركَّب من عدَّة عناصر :

أولها : الندم على معصية الله . . . أن يغمر القلب شعورٌ بالأسى والحسرة على ما فرَّط في جَنْب الله ، شعور يشبه ذلك الشعور الذي حدَّث الله عنه في كتابه ، شعور الثلاثة الذين خُلِّفوا ، حين ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم .

هذا هو الندم ، الأسى ، الحزن ، الحسرة . لا بد من هذا الشعور .

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠) ، والطبراني في الكبير (١٥٠/١٠) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٥٤/١٠) ، عن ابن مسعود ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه (٣٣٠/١٠) ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٧) .

وثانيها : هناك شيء آخر ، يولِّده هذا الشعور هو النية الصادقة والعزم المصمِّم على إصلاح الأمر ، وتدارك ما فات . . . العزم على الطاعة ، وعلى ترك المعصية ، فلا يعود إليها كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع إذا خرج منه .

لا بد من هذه العزيمة الأكيدة الوثيقة .

وثالثها : شيء آخر ، وهو أن يعمل صالحًا بالفعل ، مكان السيئات يبدِّلها حسنات وصالحات ، يُغيِّر ما كان عليه . . . بدل قول الزور يتكلم الحق ، بدل عمل السوء يعمل صالحًا ، بدل بيئة السوء يُغيِّرها إلى بيئة حسنة ، بيئة صالحة ، تُساعده على فعل الخير .

لا بد من هذا . . . ومن هنا رأينا القرآن يجعل بعد التوبة . . . الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ (مريم: ٦٠).

قرن التوبة بالإيمان ، لأن المعاصي ــ وخاصة الكبائر ـ تخدش الإيمان وتجرحه ، فـ« لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1].

فلا بد أن يُجدِّد إيمانه بالتوبة ، ولا بد لهذا الايمان المجدد أن يثمر بعد ذلك عملاً صالحًا . . . هذا هو المزيج . . . الذي لا بد منه في التوبة .

ثم إذا تاب . . . فإن الله سبحانه وتعالى ، يقبل منه . . . سُنة من سُنن الله تعالى .

قيل لرابعة العدوية : إذا تبتُ . . تاب الله عليَّ؟ قالت : يا هذا ، بل إذا تاب الله عليك تبتَ . ثم قالت له : أما سمعتَ قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:١١٨).

موانع التوبة :

ولكن . . . ما الذي يُعجز الناس عن التوبة ؟ ما الذي يُؤخِّرهم أن يتوبوا ؟ هذه مسألة لا بدَّ أن نعرفها .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المحاربين من أهل الكفر والردة (٦٨١٠) ، ومسلم في الإيمان (٥٧) ، كما رواه أحمد (١٠٢١٦) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٥) ، والنسائي في قطع السارق (٤٨٧١) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٦) .

إن الذي يُؤخر الناس عن التوبة عدة أمور :

أولها : التسويف :

التسويف . . . طول الأمل . . . اعتقاد الإنسان أنه لا يزال له في العُمر مُتَّسع ، وفي الحياة مدى بعيد .

إنَّ ابن العشرين يظن أن أمامه مُتَّسع . . . وابن الثلاثين يقول نفس القول . . . وابن الأربعين . . . وابن الخمسين . . . وابن الستين . . .

كل إنسان عنده أمل . . . وهذا للأسف يُضيِّع على الناس فُرص التوبة ، فمَن الذي يدري أيعيش اليوم أم لا يعيش؟

مَن الذي يدري إذا خرج من بيته أيعود إليه حيًّا أم يعود إليه ميتًا؟ أيعود إليه حاملاً أم يعود محمولاً ؟

تَزَوَّد من التقوى فإنك لا تـــدري إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سليم مات من غير علَّـــة وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر
وكم من فتًى يُمسي ويُصبح آمنًـــا وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري

التسويف . . . هذه واحدة .

المانع الثاني : هو الاستهانة بالمعصية :

الاستهانة بالمعصية . . . الاستخفاف بها ، استصغار المعصية . . . يظن أن هذا شيء بسيط ، وهذا ليس من شأن المؤمن ، فقد جاء في حديث ابن مسعود عند البخاري : « المؤمن يري ذنبه كالجبل ، يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يري ذنبه كذباب وقع على أنفه فقال هكذا وهكذا»[1]. أطاره من على أنفه .

مرض بعض الصالحين ، فدخل عليه مَنْ يعوده ، فوجده يبكي بكاءً حارًّا ، فقيل له : يا أبا فلان . . . مالك تبكي؟ وأنت الذي فعلت وفعلت . . . ما رأينا عليك

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨) ، وأحمد (٣٦٢٧) ، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٧) ، عن ابن مسعود .

حُرمة انتهكتَها ، ولا فريضة تركتَها . . . فقال : والله ما أبكي على ذلك ، ولكن أبكي لأني أخاف أن أكون قد أتيتُ ذنبًا أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم[1].

وقد قال بعض السلف : لا تنظر إلى صغر المعصية ، وانظر إلى كبرياء من عصيته .

فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بالمعصية ، فقد قيل : إن الذنب الذي يخشى ألا يغفر هو الذي يقول فيه صاحبه : ليت كل ذنب فعلته مثل هذا ! استصغارًا له ، واستهانة بشأنه .

المانع الثالث : الاتكال على عَفْو الله :

ثم هناك مانعٌ نفسيٌّ آخر . . . هو الاتكال على عفو الله ، وهذه أمنية يبذُرها الشيطان في قلب بعض الناس : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف:١٦٩)، هكذا كان يفعل اليهود ... يأخذون متاع الحياة الدنيا ، ويقولون : سيُغفر لنا ! ينظرون إلى جانب العفو والمغفرة ، ولا ينظرون إلى جانب البطش والعقاب ، والله تعالى يقول : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (الحجر:٤٩،٥٠) ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الرعد:٦) .

صحيح أن رحمته وسعت كل شيء ، ولكن لمَن كتب هذه الرحمة؟ إنه يقول : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٦)، ويقول : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٦).

فإذا نظر الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾، فليكمل الآية : ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (غافر:٣).

المؤمن بين الرجاء والخوف :

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن بين الرجاء والخوف ، ﴿ يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر:٩)، كالذين حدَّث الله عنهم : ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (الإسراء:٥٧).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦٥) ، عن رجل من أصحاب النبي .

كان بعض الصالحين يقول :

ما بال قلبك ترضى أن تُدنِّسه ... وثوبك الدهر مغسول من الدَّنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

المسارعة إلى التوبة :

أيها الأخوة : ينبغي أن نُسارع بالتوبة . . . ينبغي أن نُبادر فنُراجع حسابنا مع الله عز وجل ، ونصحح أخطاءنا ، ونقف على باب ربنا مُستغفرين تائبين ، نقول : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣)، خير ما نخرج به من رمضان توبة صادقة نصوح ، نكفِّر بها سيئاتنا ، ونغسل بها أوزارنا ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (التحريم:٨).

أسأل الله عزَّ وجل ، أن يتوب علينا ، وأن يوفقنا إلى التوبة الصادقة النصوح . . . إنه سميع قريب وصلى الله على محمد وآله [1].

* * *

(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا : (التوبة إلى الله) من سلسلة (في الطريق إلى الله) ، وراجع كتابنا : (خطب الشيخ القرضاوي) خطبتَيْ : (التوبة)، و(أركان التوبة النصوح وشروطها) الجزء الأول ، وخطبتي : (من ثمرات رمضان : التوبة) ، و(بواعث التوبة) الجزء السابع ، طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة .